الحقائق العليا فى الحياة

الإيمان - الحق - الجمال - الخير - القوة - الحب

« ألفاظ إذا نطقتها تتحرك لها فى نفسي دنيا كاملة ! »

للأستاذ عبد المنعم خلاف

٣ — الايمان

الإيمان والفلسفة :

قالت عقلية القرن التاسع عشر المزهوة بالكشوف العلمية والناقمة على قضايا بعض الأديان وقيودها وخرافاتها التى تراكمت عليها بتوالى العصور : إن العلم والايمان لا يجتمعان . وقد سارت فى تفسير كل شىء خارج عن حدود المادة والمخابير والمعامل ، بتأويل مادى وآلى ، وطغت الفلسفة المادية على الفلسفات التجريدية، وأفرغت الطبيعة من «الارادة، والعقل» وجعلتها رهينة بالصدفة وأعطت للزمن حكم التصفية والتوجيه ، وأعطت القوى العمياء قوة الاختيار حتى قالت « إن الوظيفة تخلق العضو ! »

وكفرت بحقيقة « السببية » والارتباط بينها وبين « المسببية » ... إلى آخر ما زخرت به كتب هذه الفلسفات مما يصل في بعض الأحيان إلى درجة الهذيان .

وقد كان يجوز أن نتقبل هذه الفلسفات التى تسند إلى القوى العمياء بعض « الفاعلية » لو أنها جعلت وراء هذه القوي إرادة واحدة منظمة مختارة موجهة . ولكننا لا نقبل بحال أن تكون هـذه القوى فاعلة بذاتها مستقلة عن ذلك النظام العام الموضوع بتدبير شكر ، وإلا رجعنا بعقولنا إلى درجة أشبه بطور الوثنيات القديمة التى كانت تعبد بعض القوى قصورا من عقولها عن إدراك قوة كلية عامة تدبرها جميعها »

وإن أول سؤال يرد على عقل متوسط هو : ما هو العامل الموفق بين فاعليات هذه القوى المتضادة العمياء هـذا التوفيق الدائم المطرد البديع لو أن الأمر كان كما يزعمون من تسلط تلك القوى العمياء على الكون ؟

والغلط الفاحش المغرور الذى لا يقبله العقل العام المتزن ، أن تتخذ حياة الأرض ، وهى ما هى من الصغر والضآلة ، مقياسا للحكم على العالم كله فرشه وحشوه وعرشه !

وقد وصل هذيان هذه البلبلة إلى حد فظيع من الرجم بالغيب باتخاذ الفروق التى تساق فى الأصل لملء بعض الفجوات التى بين حقائق العلوم كأساس مسلم للحكم عليه ، مثلما اتخذوا الأثير ، وليس هو أكثر من فرض فرضه بعض العلماء ليحل به بعض مشاكل الطبيعة ، ولا يزال هـذا الفرض بين رفض وإثبات إلى اليوم .

ويتعجب العقل البسيط السائر مع أبجديات الطبيعة من أن يصل تفكير بعض الناس — بله كبار الفلاسفة — إلى مثل ما وصل إليه من هدم الحقائق بالفروض !

***

ليس المقصود من الحياة الفكرية ألا يرضى العقل بالأوليات الظاهرة المسلمة وأن يمعن فى الغوص والتعقيد ليخرج بفروض غريبة شخصية ليحل بهـا مالا يفهمه من قضايا الكون كما هو الطابع الغالب على الفلسفات ، وإنما المقصود من الحياة الفكرية أن يكون التأمل فيها ممهدا للاثبات والعلم اليقينى . فلا يفلت الخيال فى حالة الصحو كما يفلت فى حالة النوم أو التخدير ... وما من شك فى أن عصور الفلسفة كلها لم تفد الانسانية بمقدار ما أفادتها الطريقة التجريبية التى دعا إليها فرنسيس بيكون فانها الطريقة التى قفزت بالانسانية إلى أسباب رقيها السريع فى القرنين الأخيرين ، لأنهـا تركت عالم الأحلام والبدوات والفروض الشخصية التى قد لاتفهم إلا فى رءوس القائلين بها وقد لاتكون ناضجة الفهم فى رءوسهم أيضاً ... واتخذت البديهيات البسيطة والمركبة أساسا بنت عليه صرح العلم الحديث

ولقـد كان جزاء هؤلاء الذين يسرفون فى اتباع الظنون والفروض ويتركون البسائط المعقولة بالبديهة إلى الأوهام ، أن يعيشوا متكدين أشقياء متشائمين مرضى مضروبين بالشك والألم والبلبلة والشذوذ منفيين من الحياة ! وهاهم أولاء أبو العلاء وشوبنهاور ونيتشه أمثلة تضرب فى ذلك ...

(البقية على صفحة ١٩٥٠)